الشاعرية في الأدب*

بقلم: حنا مينة
سورية

كنت، ولا أزال، من أنصار كتابة الرواية والقصة والمسرحية باللغة العربية الفصحى، لا لأن اللغة العربية هي الركن الأساس، فيما يتعلق بنا كأمة، بل لأن هذه اللغة في نبلها والسمو، وبما فيها من ثروة لا نفاد لها، في المفردات والاشتقاقات، مطاوعة جداً، قادرة جداً، على التعبير عن أدق ما في النفس من مشاعر، وقد كتبت حتى الآن خمساً وثلاثين رواية، صدر منها ثلاثون رواية عن دار الأدب في لبنان، باللغة العربية الفصحى متناً وحواراً.

أرغب في التذكير أن حجة الذين - في مصر الشقيقة - كتبوا الرواية أو القصة، كما فعل الروائي يوسف القعيد، وقبله القاص المرحوم محمود تيمور، باللغة العامية، وحجتهم، كما حجة القاص العراقي فؤاد التكرلي الذي أدار الحوار باللغة العامية العراقية في إحدى رواياته، أننا نريد التوصيل إلى القراء، لكن أداة التوصيل لها سر، أذعته على الملأ، ويتلخص بكلمتين: «الإيقاع والتشويق» وبهما حين نحسن استخدامها، يكون الوصول إلى القراء في الوطن العربي الكبير، وفي العالم أيضاً!

التقصير.. تأسيساً على ما تقدم، في الكاتب وليس في اللغة، فالأفق في الكلمة، يعطي الكلمة شاعريتها، والأفق في السرد الروائي أو القصصي، يغني هذا السرد، ويثريه بالشاعرية، وليس الأمر كذلك باللغة العامية، التي لو كتبنا بها، لاحتاج القراء إلى قاموس كالمحيط لفهم ما نكتب، ولئن كانت اللهجة المصرية مفهومة قليلاً، فإن اللهجة السورية والعراقية واليمنية وغيرها وصولاً إلى لهجة جزر القمر، غير مفهومة، إضافة إلى أن لغة القرآن الكريم، تنزلت بالفصحى، وما أظن أن ثمة من لا يفهم اللغة التي تنزل بها، ولو كتبنا أو كتب بعضنا باللغة العامية، لكان ذلك تجنياً على اللغة الفصحى، وتقطيعاً لأوصالها، وتجزيئاً لمفرداتها، وإساءة كبيرة لمقومات الأمة العربية، وأهمها اللغة، وإساءة إلى الوطنية والقومية العربيتين.

إنني أحاور، منذ نصف قرن ونيف الداعين إلى الكتابة باللغة العامية، في الرواية والقصة خصوصًا، وكنت أحسب أن هذه المسألة قد حسمت، غير أن حسباني كان وهماً أو بعض وهم على الأقل، لأن الذين يكتبون المتن باللغة العامية، ورغم بطلان ذريعتهم في التوصيل، لا يزال لهم أثر ما في مصر، والذين يديرون الحوار باللغة العامية لا يزال لهم أثر في العراق،

* صحيفة الرياض السعودية، العدد ١٢٩٤٦، ١٤٢٤/١/١٠هـ، ٢٠٠٣/١٢/١٤م.

وهذا هو السبب في أن بضاعتهم إلى كساد تدريجي وتقريبي، مهما نالوا من جوائز مثل جائزة العويس، هذا الإنسان الكريم المرحوم، الذي أنشأ أول جائزة كبرى في الوطن العربي، ورسخها، قبل وفاته، بما أوقف لها من مقومات الاستمرار.

الشاعر الكبير المرحوم بدوي الجبل، قال في قصيدته الشهيرة «الشماتة» يوم احتلت ألمانيا الهتلرية باريس:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا
رق الحديد وما رقوا لبلوانا
ويل الشعوب التي لم تسق من دمها
ثاراتها الحمر أحقاداً وأضغاناً
تغضي على الذل غفراناً لظالمنا
تأنق الذل حتى صار غفراناً

ومن البدهي أن هذه القصيدة في صياغتها التي من ذهب، قد فهمها الجميع، وتغنى بها تشفياً من باريس في وقتها، الجميع أيضًا، وبعضهم حفظها ونشرها، وهذا معروف لا يحتاج إلى التذكير به، إلا أن شطرة «تأنق الذل حتى صار غفراناً» هي على رقة تعبيرها جارحة حتى العظم، في مغزاها وسخريتها ووقع كلماتها التي كالسوط على أجسام الغافرين للمحتل احتلاله.

وليس، في رأيي، من في وسعه أن يجعل الذل أنقاً، وأن يحمل هذا الأنق ذل الغفران للظالمين، في بيان عربي فصيح، كما فعل بدوي الجبل، دون أن أنسى أن هناك من شعراء الزجل، في لبنان ومصر والعراق وسورية، أمثال حسين حمزة والسبعلي، ورشيد نخلة، وبيرم التونسي، وصلاح جاهين، ونقولا حداد، وهذا الساحر عبدالرحمن الأبنودي وغيرهم، ومن حلق في الخيال والتخييل والابتكار، طوع الكلمة العامية للمعنى الذي أراده، فسبر أغوار النفس، ورجوات المشاعر الإنسانية، فكان في غزلياته كما في وطنياته، معبراً صادقاً عن الوطن والشعب، وحاملاً راية الكفاح في الوقائع القريبة والبعيدة من صنائعنا، ومن رفة الهدب في لواحظ العاشقين من أبنائنا!

محمود تيمور

إن التاريخ في ماديته والجدلية، كان مع السياق إلى أمام، أخذاً بمبدأ الحركة التي لا تعرف السكون، أو تنفيه من منطلق نفي النفي فـ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ كما تنزلت الآية الكريمة، وهذا الذي ينفع في نثر أبي حيان التوحيدي، قد أعطى النثر أن يكون في هبوة الحق ضد الباطل، مقولة: «إن من البيان لسحرا» والبيان هنا كان فصيحاً لا عامياً، فالعامية عاجزة عن أن تكون بياناً ساحراً، مهما اجتهد الذين يلجؤون إليها بذريعة التوصيل إلى القارئ انطلاقاً من استسهال الكلمة العامية التي تجافي استعصاء الكلمة الفصحى، في بعض المراد قوله، ولهذا كانت طريقة أبي حيان التوحيدي، في ترسله المدهش قائمة على الاحتفال والتأني، والصبر على المعنى الدقيق، والعناية بوضعه في شكل جميل.

وفي زمننا هذا الصعب والرديء هناك من يؤثر العافية ومن يهتم بأمنه ومصالحه أولاً، وهناك من يجود بالمال، بذلاً متواصلاً، والمال ليس عصب الحياة فقط، وإنما عصب السلاح، لمن يقاتلون في مفاداة تحار الدنيا بأمرها، من إخوتنا في فلسطين المناضلة والجريحة، ومن إخوتنا في العراق المحتل، بحجة التحرير الكاذبة، وقد صدق المتنبي العظيم الذي قال:

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم
تقلدتني الليالي وهي مدبرة
كأنني صارم في كف منهزم

إن بعض العرب، وما يملكون، صارم في كف منهزم، أمام مجرم حرب وسفاح اسمه شارون، وأمام محررين كاذبين وقتلة في العراق، يدعون أنهم جاءوا للإنقاذ، فإذا هم يغرقون الشعب العراقي بالويلات!

يتهمونني أنني شاعري في الرواية؟ نعم! أنا هذا.. وشاعريتي بالفصحى متناً وحواراً، لا بالعامية التي تجعل لغتنا العربية، أجزاء وأشلاء! ■